



اسم المقال: الطبقة الوسطى في العراق بين الانطلاق المبكر والإخفاق المتأخر

اسم الكاتب: أ.د. عبد السلام ابراهيم بغدادي

رابط ثابت: <https://political-encyclopedia.org/index.php/library/7091>

تاريخ الاسترداد: 2026/05/14 16:39 +03

الموسوعة السياسية هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت. لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسية - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسية - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع <https://political-encyclopedia.org/terms-of-use>



الطبقة الوسطى في العراق
بين الانطلاق المبكر والإخفاق
المتأخر

أ.د.
عبد السلام ابراهيم بغدادي (*)
dr.salam54@yahoo.com

مقدمة :

لم تكن كتابة هذه الدراسة بالسهلة أبداً ، ذلك أن أي دراسة تأصيلية - وهذا ما تزعم هذه الدراسة إنها قامت به - تواجه سيلاً من التحدي والصعوبة ، ليس بسبب ندرة المصادر أو قلة المعلومات. حسب وإنما لاختلاف هذه المصادر في توجهاتها ، وانحياز هذه المعلومات لحساب فريق على آخر؛ فضلاً عن اختلاف كل مرحلة في أحكامها وتقييماتها عن المرحلة التي سبقتها وهكذا ، لاسيما إذا تعلق الأمر بالجانب السياسي أو الأيديولوجي ، وهو أمر حاكم في تقييم أو تقويم أي مرحلة سابقة. ومع ذلك تأتي هذه الدراسة كمرحلة أولى في سياق دراسات سوف تتوالى - إن شاء الله - عن الانطلاقة الأولى للطبقة البرجوازية العراقية ، وهي انطلاقة كانت في حينها واعدة برغم من أنها كانت بسيطة ومتواضعة، لكنها ظلت متواصلة ومتفائلة برغم كل التحديات والمعوقات.

وجاءت الدراسة لتثبت أن العراق لم يفتقد أبداً نشوءاً أصيلاً لطبقة برجوازية رائدة، لكن التحديات التي واجهتها حالت دون إكمال مسيرتها بشكل طبيعي وسلس، مثلما حصل لنظيراتها في الدول المتقدمة التي سبقتها في البدء ومن ثم في التطور والارتقاء. وسعت الدراسة لتحقيق غايتها على الالتزام بمنهج تاريخي تحليلي سوسيولوجي

(*) مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية، جامعة بغداد.

مقارن ، يعتمد التدرج التاريخي في عرض مسيرة التواصل البرجوازي بأسلوب تحليلي، ومن منظور سوسيولوجي / طبقي يحلل نمو وتبلور الطبقة الوسطى في العراق بأسلوب مقارن بين مرحلة وأخرى.

وعسى أن تكون الدراسة قد قدمت لبنة صغيرة على طريق فهم هذه الطبقة وتطورها، ومن ثم سر اخفاقاتها المتأخرة ، مما جعل العراق يراوح في مكانه ضمن دول ما يسمى بالعالم الثالث وعدم ارتقائه الى مصاف العالم الأول أو حتى الثاني ، على الرغم من كل ما يمتلك من ثروات وعقول مبدعة.

1- إرهاصات ظهور الطبقة الوسطى في العراق

لا يمكن تلمس المثابة الأولى التي انطلقت منها الطبقة الوسطى في العراق، بشرائحها الصناعية والتجارية والمتعلمة ، ليس بسبب اختلاف آراء المؤرخين والمؤرخين فحسب ، وإنما لاختلاف تقديراتهم حول ما يعد له علاقة بالطبقة الوسطى أو ما يسجل على أعمال الولاة والحكام المستنيرين الذي شكلوا الرافعات الأولى لانطلاق هذه الطبقة المستنيرة والفاعلة في المجتمع العراقي الحديث.

فمثلاً يعدُّ البعض عهد الوالي مدحت باشا ١٨٦٩ - ١٨٧٢ بداية الانطلاق للشرائح الأولى من الطبقة البرجوازية ، في حين عدَّ البعض الآخر عهد الوالي داود باشا ١٨١٤ - ١٨٣١ شرارة الانطلاقة الأولى للصناعيين في العراق بما أدخله من مصانع ونظم حديثة ، سنأتي على ذكرها لاحقاً.

بينما تذكر صفحات التاريخ أن عهد الانطلاق كان أبكر من ذلك* . إذ تشير إحدى الدراسات إلى أن مدينة البصرة شهدت نشوء طبقة متميزة من تجار الجملة

* لا داعٍ للتأكيد على أن دراستنا تبدأ من التاريخ المعاصر والحديث للعراق ، لكن هذا لا يمنع من الإشارة إلى ان هناك واقعة لها دلالتها من التاريخ الوسيط ، وهي واقعة ذات أهمية وهي أن سلمان الفارسي () كان عاملاً على الكوفة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب () ، وأراد أن يسير في العراق سيرة تنفق واتجاهه الفكري (اليساري) ، فكوّن نقابات للصناع ... وهذا يدل على وجود هذه الطبقة وانتشارها وبشرائح متنوعة استدعت من الصحابي الجليل (سلمان) أن يشكل نقابات تسهر على مصالحها.

منذ وقت مبكر يعود الى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي؛ وكان جلهم من اليهود والأرمن ، الذين امتدت تجارتهم عبر الخليج العربي إلى الهند*. إذ كانت البصرة تشهد نمواً بل نهوضاً واضحاً ، على الرغم من الوجود العثماني والبريطاني في المنطقة ، وكذلك على الرغم من المعرقات المتمثلة بالأوبئة والحروب والقرصنة البحرية وغارات القبائل والسلب والنهب على الطرق البرية والممرات البحرية.^(١)

وكان هؤلاء التجار قد شكلوا نواة أساسية لظهور الطبقة الوسطى وتموها فيما بعد، لاسيما وأنهم مارسوا تجارة الاستيراد والتصدير منذ وقت مبكر، وهي تجارة كانت تمتد لمسافات بعيدة في ظل سيطرة عثمانية ووجود أوروبي متنامي ، أدى إلى التحام مبكر لاقتصاد البصرة بالاقتصاد الرأسمالي العالمي.^(٢)

مع ذلك، نقول أن عهد الوالي المملوكي داود باشا ١٨١٤-١٨٣١... شهد ظهور البواكير الأولى للطبقة البرجوازية في العراق. وداود باشا هو الوالي الأخير من

ينظر: أحمد عباس صالح ، اليمن واليسار في الإسلام، (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية ، كانون الثاني ، ١٩٧٣) ، ص ٦٢.

* ظل اليهود يشكلون حتى نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات من القرن العشرين أبرز النخب التجارية والمصرفية في العراق وأدت هجرتهم بعد العام ١٩٤٨ إلى خلق فجوة كبيرة في الميدان التجاري والمصرفي استغرقت وقتاً لردمها من قبل الآخرين. وكان اليهود يتمتعون بالأغلبية بعد الحرب العالمية الأولى ، وقدرت أعدادهم في حينها بنحو ٥٣ ألفاً من إجمالي سكان بغداد الذي كان في حينها بحدود ١٥٠ ألفاً. وكانوا يشكلون العمود الفقري لطبقة ملاك الأرض والتجار والأعمال الحرة ، ويؤلفون نسبة عالية من الإدارة الحكومية. بيد ان أعدادهم تراجعت بعد عام ١٩٤٨ ، ولم يبق منهم إلا أفراداً معدودين بداية السبعينيات ؛ ينظر: الزيايث بيكار، (العواقب العراقية الوحشية على الشرق الأوسط) في: اسحاق نقاش وآخرون ، المجتمع العراقي حفريات سوسولوجية في الإثنيات والطوائف والطبقات ، (بغداد ؛ بيروت: معهد الدراسات الاستراتيجية، ٢٠٠٦) ص ٢٩٧ ، ٣٠٧. وكذلك :

حنا بطاطو ، (الدور السياسي للشبيعة وعملية الاندماج) في: اسحاق نقاش وآخرون، المجتمع العراقي حفريات سوسولوجية ... ص ١٩٨ ، ١٩٩ ؛ أحمد صباح الدرة ، التخطيط الصناعي في العراق ١٩٢١-١٩٨٠ ، القطع الخاص ، (بغداد ، مكتبة المدينة ، ١٩٨٢) ، ص ٤٤ ؛ صحيفة الشرق الأوسط ، لندن ، السنة ٣٤ ، العدد ١٢٢٧٨ في ١٠/٧/٢٠١٢ ، ص ٣.

(١) يتصرف عن: د. ثابت عبد الجبار عبدالله ، الاقتصاد السياسي لتجارة البصرة في القرن الثامن عشر، ترجمة: عزيز سباهي. عرض صحيفة المدى/ بغداد، السنة ١٢ ، العدد ٣٢١٦ في ١٦/١١/٢٠١٤ ، ص ١١.

(٢) المصدر نفسه ، ص ١١.

سلالة المماليك (الكوله مند) الذين حكموا بغداد للحقبة من عام ١٧٤٩ إلى عام ١٨٣١ ميلادية (١١٦٢-١٢٤٧ هجرية).

وكان هذا الوالي قوياً وحادثياً ، لكن الظروف لم تكن مواتمة .. ويقول عنه أحد الدارسين ، وهو من المماليك أيضاً ، أن داود باشا الذي دام حكمه سبعة عشر عاماً ، أحسن التدبير ، وأصلح فاسد الأمور ، وقام بتنفيذ مشاريع عدّة ، منها حفر الترغ والأنهار ، و(استدعى صناعاً من أوربة وأحدث مصانع الجوخ والبز والبواريد واجتهد في ارتقاء المصانع الوطنية ، وألف جيشاً نظامياً عدده عشرة آلاف من مدفعية ورجالة الذين درّهمهم ... مسيو دووه من ملازمي نابليون الأول ... وهذا يعني أن داود باشا المملوكي كان أول من أسس المصانع الحديثة بالاستعانة بالخبراء الأوربيين في بغداد ، قبل أن يؤسسها مدحت باشا في عام ١٨٧٠ ، أي قبله بنصف قرن).^(١)

ويرى البعض ممن تناول تاريخ العراق الحديث وإرهاصات الطبقة الوسطى في العراق ، إن البحوث التاريخية التي تناولت تاريخ العراق الحديث قد أجمعت حق الوالي الشهير داود باشا والي بغداد ، الذي ظهر على المسرح السياسي في حقبة من أكثر الحقب إثارة في تاريخ الدولة العثمانية والعراق. إذ عنت بتاريخ الولاة والمصلحين وحياتهم وأدوارهم ، ولم تعطه حقه ، أو المكانة اللائقة التي تستحق وشخصيته وحنكته ومكانته ، وكادت حتى الكتب التي احتوت وأرخت لحركات الإصلاح في التاريخ الحديث أن تهمله وتجنح الى الإشارة له والتعريف به. فقد تركزت الأضواء على الوالي مدحت باشا [الذي سيرد ذكره لاحقاً] وعدّته وراء الكثير من الإنجازات العلمية والثقافية والتطورات السياسية والاجتماعية وحتى العسكرية.. وكان القارئ البسيط لا يلمح إلا لمأماً من إشارات للوالي داود باشا ، بيد أن أهل التاريخ الذين ينقبون في بطون الكتب يجدون ويكتشفون أن لهذا الوالي دوراً كبيراً في حياة العراقيين ، وهو المملوك الذي انتزع فرصته بعلميته وثقافته ومهاراته السياسية واسلوبه المتفرد الذي عكس عصامية نادرة. فقد قطع

(١) سليمان فائق بك ، تاريخ المماليك (الكوله مند) ، ترجمة: محمد نجيب أرمنازي (عن التركية) ، مراجعة وتقديم : دكتور طالب البغدادي ، (بغداد: دار ضفاف للطباعة والنشر والتوزيع ، ٢٠١٢) ، ص ٦٢.

شوطاً طويلاً في اثبات جدارته وترسيخ مكانته في المجتمع العراقي ، وليقطف في النهاية ثمار جهده ودأبه لتحقيق أحلامه والتعويض عن حالة الحرمان التي عانى منها منذ أن خطفه المتاجرون بالرق والعبيد ، وهو الطفل المدلل الى أمه .. ليتولى - بعد حين - ولاية بغداد التي تشرف على ولايات العراق الأخرى وهي : البصرة والموصل وشهرزور وماردين وهو في الخمسين من عمره لبدأ مرحلة أخرى نحو البروز والتألق والتطلع إلى حكم أكبر وهو الاستقلال في العراق عن الدولة العثمانية ، على غرار محمد علي باشا ١٨٠٥ - ١٨٤٩ في مصر.^(١)

2-الومضات الأولية على طريق التكوين

وقبل أن تنتقل إلى محطة الوالي الإصلاحى الأكثر شهرة ونعني به (مدحت باشا / ١٨٦٩ - ١٨٧٢) ، نشير إلى بعض الوقفات التي سجلت ومضات مضيئة على طريق تهيئة الأجواء لظهور بواكير طبقة وسطى فاعلة في المجتمع العراقي .

ومن هذه الومضات ، ما أشارت إليه بعض المصادر إلى أن وجود أول مؤسسة بلدية في بغداد (أمانة بغداد) ، إنما يرجع إلى مرحلة مبكرة تعود الى العام ١٨٤٠ .^(٢) في حين ذكرت مصادر أخرى إن انشاء أول بلدية في بغداد ، إنما يعود إلى العام ١٨٦٨ - أي قبل تولية مدحت باشا على بغداد بعام واحد - وأن أول رئيس لها ، هو إبراهيم أفندي الدفتري.^(٣)

(١) داود باشا وإصلاحاته في العراق (تقرير) المدى ، السنة الحادية عشرة ، العدد ٣٠٤٥ ، الإثني ٣١/٣/٢٠١٤ ، ملحق (ذاكرة عراقية) ، ص ١٥ .

*لقد تناول بعض المؤرخين حياة الوالي داود باشا في مؤلفات مستقلة ؛ نذكر منها: مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود-لعثمان بن سند البصري .. وحققه المؤرخ الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف ؛ وجيمس ريموند ، رحلتي إلى بغداد في عهد الوالي داود ؛ وتاريخ العراق من داود باشا إلى مدحت باشا ؛ وداود باشا ونهاية حكم المماليك في العراق ليوسف عز الدين . فيما تناوله في فصول خاصة جمهرة من الكتب الأخرى. المصدر نفسه ، ص ١٥ .

(٢) المدى ، بغداد ، السنة ١٢ ، العدد ٣١٥٢ في ٢١/٨/٢٠١٤ ، ص ٦ .

(٣) إسرائع عبدالمنعم السعدي ، (بلدية بغداد قبل تأسيس أمانة العاصمة) ، المدى ، السنة ١٢ ، العدد ٣٢١٧ في ١٧/١١/٢٠١٤ ، ملحق ذاكرة عراقية ، ص ١٠ .

وتشير الوقائع إلى أن سنة ١٨٥٩ شهدت إدخال الإبحار البخاري النهري (في دجلة) ، وأن العام ١٨٦١ شهد ظهور البرق الكهربائي ، في نقلة نوعية تسجل بدايات ارتباط العراق بالعالم الرأسمالي وانتقاله التدريجي من اقتصاد الكفاف الى اقتصاد السوق وانتشار النقود ودخول البضائع والسلع (الإنكليزية) .. ومما عزز من ذلك - وكما سنشير الى ذلك لاحقاً - افتتاح المدارس الحكومية ومن ثم الأهلية وظهور وانتشار الصحافة ابتداءً من العام ١٨٦٩.^(١)

إن ذلك كله قد أدى الى انغماس الولاءات المحلية في المدن ، والعشائرية في الريف ، في عملية تأكل ، وإلى ولادة قوة اجتماعية جديدة ، وإن كانت مازالت جنينية ، وهي الانتلجنسيا الجديدة (الشريحة المتعلمة والمتقنة) ، وجذور الشرائح البرجوازية الأخرى ، وهو ما عني عملياً ولادة الولاء الجديد للوطن او الأمة ، التي لم تُزح الولاءات القديمة عن مواقعها ، بل تعايشت معها ، وتشربت بعض عناصرها النفسية.^(٢)

والظاهر أن وقائع كثيرة أسهمت في نشر الشعور الوطني او الشعور بالانتماء الى الأمة ، ومن أبرزها تزايد عدد الشباب الملتحقين بمدارس التعليم العالي التركية ، وزيادة التعرض لطرق التفكير الأوروبي ، وانتشار الكتب والصحف ، وتسارع ايقاع سياسة التتريك ، وظهور النوادي والجمعيات العربية ، والاهتمام بالتاريخ العربي ، واستنهاض اللغة المشتركة؛ ولكن ما ساهم أكثر من أي شيء آخر في تقدم هذا الشعور الجديد ، كان الغزو الإنكليزي (البريطاني) ١٩١٤ - ١٩١٨ ، أو بالأحرى المقاومة التي أثارها هذا الغزو ، ووصلت نقطة الذروة في ثورة العشرين^(٣) ، (الثورة التي قام بها الشعب العراقي ضد الاحتلال البريطاني ، وهي ثورة عمّت جميع الأراضي العراقية).

3-التحول المفصلي «دمغة مدحت باشا»

(١) ماهر الشريف، (حنا بطاطو: العراق ، الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية ، عودة الى أبرز القضايا والتساؤلات) في : اسحاق نقاش وآخرون ، المجتمع العراقي حفريات سوسولوجية ، ... ص ٥٧.

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٨.

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥٨.

والتزاماً بالمنهج أو التدرج التاريخي ، فإنه لزاماً علينا أن نعود إلى الحقبة التي تلت إنشاء أمانة بغداد عام ١٨٦٨ ، فنقول أن العام التالي ، شهد تطوراً ملموساً ، بقدم الوالي الإصلاحية المعروف مدحت باشا ١٨٦٩-١٨٧٢ ، الذي شهد عهده قفزة نوعية على طريق ظهور وتبلور طبقة برجوازية صغيرة ، لكنها رائدة ونشيطة ، من خلال الاجراءات والاصلاحات التي أدخلها ، والمؤسسات التي أوعز بإنشائها ، والتي تركت دمغتها - بعد حين - في تاريخ نشوء هذه الطبقة وتطورها اللاحق في العراق .

وما يمكن ذكره هنا ، أن مدحت باشا أدخل التنظيمات الإدارية ، فوضع مجالس الولاية ، ومجالس البلديات والمجالس الخاصة بالمتصرفيات . فشكل أول مجلس بلدي عام ١٨٦٩ ، ويكون اختيار أعضائه عن طريق الانتخابات ، وتعهد إدارة البلدية الى رئيس البلدية ومجلسها الذي يتكون على الأغلب من إحدى العوائل الأساسية (المعروفة آنذاك) في المدينة أو موظفاً حكومياً.^(١)

وعملت الإدارة الجديدة ، على تشجيع شيوخ ورؤساء المناطق القبلية على الاستقرار والتوطن ، في محاولة لتقليص حالة البداوة والدخول في تكوين بنية اقتصادية واجتماعية جديدة .. لاسيما بعد أن ضمنت ولاء هذه العشائر - على الأقل في حينها- وبعد ذلك أدخل نظام الطابو (ابتداءً من العام ١٨٦٩) في ملكية الأراضي التي أثرت على علاقة الملكية في داخل العشيرة نفسها . كما ادت التحسينات المهمة في وسائل الاتصال ، لاسيما الاتصال النهري ، دوراً غير قليل في تسارع إيقاع تغيير المجتمع العراقي ، وأدت التغييرات التي حدثت في البنية الاجتماعية - الاقتصادية للمدن إلى النمو السكاني (الديموغرافي) أكثر من غيرها إلى حافز لجذب أعداد متزايدة من الناس من القرى والأرياف إلى المدن^(٢) ، لاسيما الموصل والبصرة وبغداد .

(١) إسرائ السعدي ، (بلدية بغداد ...) ، ص ١٠ .

(٢) فريدة جاسم المندلاوي ، النظرية العالمية في مجتمع متغير ، بحث في سوسولوجيا الجريمة والسلوك الاجرامي ، دراسات اجتماعية ، جامعة بغداد ، كلية الآداب ، ٢٠١٠ ، ص ١٢-١٣ .

وهذا يعني أن التركيب الاجتماعي قد شهد تحولاً جديداً ، وهو الانتقال من الريف إلى المدينة وتوافق ذلك مع توطين البدو . وهذه التحولات كان لها انعكاسات اقتصادية - اجتماعية ، تتمثل في القابلية الاستيعابية للمدن للزيادة السكانية الناتجة عن عمليات الهجرة والانتقال ، وبالتالي زيادة نسبة وأعداد سكان المدن^(١) ؛ لاسيما المدن الثلاث المشار إليها آنفاً وهي البصرة وبغداد والموصل . الأمر الذي وُفّر قاعدة اجتماعية لنمو وتبلور طبقة بوجوازية وطنية صغيرة أو جنينية ، مع ظهور طبقة عمالية تحوي نسبة من العمال الصناعيين والحرفيين ، الذين شكلوا نواة لحركة صناعية واعدة .

إن تدفق السكان من الريف والبادية ، أدى إلى ازدياد سكان المدن الثلاث الرئيسية زيادة ملحوظة ، بل كبيرة ومتسارعة . فقد ازداد سكان البصرة من عشرة آلاف نسمة في العقد الرابع من القرن التاسع عشر إلى خمسة عشر ألفاً في أواسط ذلك القرن ، ومن ثم إلى ستين ألفاً في بداية القرن العشرين . كذلك ارتفع سكان الموصل من ثلاثة وستين ألفاً عام ١٨٨٩ إلى حوالي ثمانين ألفاً عام ١٨٧٨ ، ومن ثم إلى ما لا يقل عن مائة وخمسة وأربعين ألفاً عام ١٩٠٠ . مع العلم أن المجموع الكلي لسكان ولايات بغداد والموصل والبصرة بلغ عام ١٩٠٥ مليون وثلاثمائة وخمسة وتسعون ألفاً نسمة . ومن الطريف أن نذكر أن ازدياد عدد سكان بغداد قد دفع مجلة (لغة العرب) للشكوى من صعوبات المسير داخل أسواقها - على الرغم من عدم وجود سيارات آنذاك - وذلك بسبب الازدحام الشديد.^(٢)

ومما يجسب للوالي المحدد مدحت باشا - ليس في باب إصلاحاته العامة والرائدة فحسب ، وإنما في باب افتتاح الطريق أمام نشوء شريحة متعلمة مثقفة / انتلجنسيا ، شكلت فيما بعد نواة فاعلة لقيام طبقة بوجوازية واعدة - قيامه بإنشاء

(١) حسن عودة أبو الهيل ، أسس قيام الطبقة الوسطى في العراق ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، جامعة بغداد ، كلية العلوم السياسية ، قسم الفكر السياسي ، ٢٠١٤ ، ص ٢٥ .
(٢) يتصرف عن المصدر السابق ، ص ٢٥ .

المدرسة (الثانوية المركزية) * ، إلا أن البناء لم يكتمل خلال ولايته فأكمل البناء في عهد الوالي عبدالرحمن باشا، في ولايته الثانية ١٨٧٩-١٨٨١.

وتعود جذور البناية الى العصر العباسي المتأخر حيث كانت الأرض التي شيدت عليها المدرسة رباط يُعرف برباط (سعادة)؛ وقد تَهَدَّم بقدم السنين.^(١) والبناية تقع بجانب الرصافة من بغداد ، على مقربة من ضفاف نهر دجلة ، وشارع المتنبّي وبناية الحكومة السابقة في العهد الملكي، قريباً من ساحة الميدان والباب المعظم والمكتبة الوطنية.

ولا تزال هذه (الثانوية) ، القابعة في قلب بغداد ، مستمرة في تخريج أفواج الشباب العراقي حتى اليوم تحت اسم (الاعدادية المركزية).

وما يدخل في سجل مدحت باشا ، الوالي ذو الذكر الطيب وأكثر الولاة العثمانيين اصلاحاً وعمراً - نظراً لتفتحته الفكري وثقافته الحديثة المستنيرة - ودوره في تمهيد الطريق لظهور وتبلور شريحة من الانتلجنسيا والبرجوازية الصناعية ، مبادرته الخالدة في تأسيس مطبعة الزوراء ، التي طبعت فيها صحيفة الزوراء التي صار تاريخ اصدارها

* مما يجدر ذكره، أن جمعية الآليانس (اليهودية-الفرنسية) أسست في بغداد سنة ١٨٦٤ مدرسة عصرية ابتدائية ومتوسطة للبنين. أخذت تدرس العلوم واللغات الأجنبية فضلاً عن اللغتين العربية والعبرية . وقد بلغ عدد طلابها سنة ١٨٩٩ (٢٥٤) طالباً وزاد عددهم سنة ١٩٤٩/١٩٥٠ إلى نحو (١٠٠٠) تلميذ. وكانت هذه المدرسة تطبق فضلاً عن المناهج الرسمية المقررة ، منهاجاً خاصاً بالفرنسية ، يتيح للطلاب الحصول على الشهادات الدراسية الفرنسية. ومما له علاقة هنا أن الجمعية الفرنسية أسست سنة ١٨٩٣ مدرسة للبنات، لعلها كانت أول مدرسة للبنات في العراق. وقد أنشأ لها المحسن البغدادي الأصل السرايبي خضوري سنة ١٩١١ بناية كبيرة على روح زوجته لورا خضوري ، افتتحها الوالي أحمد جمال بك بصورة رسمية ؛ كان عدد التلميذات سنة ١٨٩٩ (١٣١) ، فزاد في سنة ١٩٤٩/١٩٥٠ الى ما يقارب ال (١٤٠٠) ، منهم (١٨٠) من الذكور والإناث في روضة الأطفال. وألحقت بالمدرسة فيما بعد صفوف لتعليم الخياطة والتطريز، وقد فازت معروضات التطريز بالجائزة الذهبية للمعرض الصناعي الذي أقيم في بغداد سنة ١٩٣٢ .

ينظر: يوسف رزق الله غنيمه ، نزهة المشتاقفي تاريخ يهود العراق. مع ملحق بقلم مير بصري (بتاريخ يهود العراق في القرن العشرين). (بيروت: الوراق للنشر؛ الفرات للنشر والتوزيع، ط٣، ٢٠٠٦)، ص ٣٠٥-٣٠٦.

(١) يتصرف عن: زكي خنساء شمس الدين ، (الثانوية المركزية في عهدنا الأول) ، المدى ، السنة العاشرة ، العدد ٢٨٧٥ في ٢٦/٨/٢٠١٣ ، الملحق ، ص ٨.

عام ١٨٦٩ عيداً للصحافة العراقية.^(١) فضلاً عن قيامه بتأسيس مدرسة الصنائع ، التي خصصت في البدء لقبول (الصبيان اليتامى المسلمين الذين لا معيل لهم بهدف تعليمهم مهن حرة في التجارة والحداثة والنسيج ، وظلت هذه المدرسة تؤدي غرضها الوطني لأبناء اليتامى إلى عام ١٩١٧ حيث احتل الإنكليز بغداد فألغيت).^(٢)

لكن دورها الرائد لم يلبغ ، إذ أسهمت في تخريج العديد من الحرفيين والمهنيين الذين قامت على أكتافهم وآخريين ، بواكير النهضة الصناعية الحديثة في العراق ، إذ عمل كثير منهم في المعامل والورش التي ظهرت فيما بعد هذه الحقبة المضئفة.

ومن إنجازاته الأخرى التي تركت وقعاً حسناً على طريق الصناعة والصناعيين في العراق ، قيامه بإنشاء مصهر للحديد ، والذي سمي في حينه (دميرخانه).^(٣)

ونصبه مضخة لصنع الثلج ، قرب مدرسة الصنائع الواقعة في وسط الرصافة ببغداد.^(٤)

وقيامه بإنشاء خط سكة حديد بطول ١٢٠ كيلومتراً يربط مدينة الكاظمية في الجزء الشمالي الغربي من كرخ ببغداد.^(٥)

(١) عزيز جاسم الحجية ، (بعض الأوائل البغدادية) ، المدى ، السنة ١٢ ، العدد ٣٢١٧ في ١٧/١١/٢٠١٤ ، ملحق ذاكرة عراقية ، ص ٩.

* يذكر أن اول من أسس مطبعة في بغداد ، وكانت حجرية ، هو داود باشا - الذي سبق الحديث عنه- لكن الباحث لم يعثر على مصدر لتوثيق هذا الحدث الرائد. ومما هو جدير بالذكر ، أن اليهود العراقيين أسسوا اول مطبعة لهم في بغداد سنة ١٨٨٤- أي بعد ١٥ سنة من تأسيس مطبعة الزوراء- وهي مطبعة بيخور التي أنشأها الحاخام شلومو بيخور ١٨٤٣- ١٨٩٢. وأسس الحاخام عزرا روبين مطبعته سنة ١٩٠٤. غنيمة، ص ٢٩٠.

(٢) الحجية ، المصدر نفسه ، ص ٩.

(٣) وليدي الزيدي (مترجم) بغداد في مذكرات الرحالة الفرنسيين في القرن ١٧ و ٢٠ ، صحيفة المدى ، السنة ١٢ ، العدد ٣٢١٧ ، في ١٧/١١/٢٠١٤. ملحق: ذاكرة عراقية ، ص ١١.

(٤) أمين المميز، (هكذا أتذكر بغداد)، صحيفة المدى، السنة ١٢، العدد ٣٢١٧، في ١٧/١١/٢٠١٤. ملحق: ذاكرة عراقية، ص ٧.

(٥) الزيدي ، ص ١١.

واتجه الوالي مدحت باشا عام ١٨٧١ نحو استثمار النفط الموجود في خانقين ومندلي [تقعان اليوم ضمن محافظة ديالى - شرقي بغداد]. إذ شهد ذلك العام أول اهتمام جدي بالنفط العراقي على يد ذلك الوالي الرائد .. إذ قام بجلب أدوات وخبراء وفنيين من ألمانيا بغية إتمام المشروع ؛ لكن قرار عزله عن الولاية في عام ١٨٧٢ حال دون إنجازه ، حتى أن الأدوات تلفت نتيجة الإهمال. وتلا ذلك محاولات قام بها الخبراء الفرنسيون في أواخر القرن التاسع عشر لتحسين الإنتاج وزيادته في مناطق القيارة وطوزخورماتو وبابا كركر في شمالي العراق. (١)

4-التواصل في ظروف غير ملائمة

خلال أيام الوالي (سري باشا) عام ١٨٨٩ ميلادية ، شيدت المدرسة الابتدائية (الحديثة) في منطقة الفضل - بجانب الرصافة في بغداد- كتمييز لها - كما يقول المؤرخ البغدادي عزيز الحجية - (على باقي المحلات لأهميتها المكانية على نفقة العلامة عبد الوهاب النائب ، وسميت (حميدية مكتبي) نسبة للسلطان عبد الحميد ، وكان اول مدير لها هو عبد المحسن الطائي ، وحالياً هي مدرسة الفضل بطابقين ذات صفوف واسعة وصنّفها مدرسة بنات) وقد تخرج منها الراحل الأديب عزيز الحجية عام ١٩٣٥ ، وهذا يعني أنها كانت مدرسة بنين. (٢)

إن قيام هذه المدرسة في قلب الرصافة من بغداد ، شكّل - في حينه - بؤرة إشعاع حضارية ، أسهمت في إنتاج الطلائع الأولى لشرائح الانتلجنسيا والبورجوازية العراقية الرائدة.

وعلى طريق تبلور وظهور شرائح مستنيرة من الطبقة البورجوازية العراقية الصغيرة الرائدة ؛ فإنه يمكن القول ، أنه خلال المدة من عام ١٨٧٢ إلى عام ١٩١٢ ،

(١) ينظر في ذلك : اسماعيل نوري الربيعي ، (الجدور التاريخية لامتيازات النفط العراقي) ، السياسة الدولية ، القاهرة ، مؤسسة الاهرام ، العدد ١٨٦ ، نيسان / أبريل ، ٢٠٠٧ ، ص ١٥٠. وكذلك : بسام يوسف ، وإرك ديفيز ، تفسير الحكم الأوتوقراطي في العراق : النفط والصراعات من منظور تاريخي واجتماعي - سياسي. في : ابراهيم البدوي وسمير المقدس (محرران) ، تفسير العجز الديمقراطي في الوطن العربي ، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ، ٢٠١١) ، ص ٣٧٢.

(٢) عزيز الحجية ، مصدر سابق ، من كتاب (بغداديات) - الجزء السابع ، ص ٩.

كان عدد الطلاب العراقيين الدارسين في إسطنبول - عاصمة الدولة العثمانية / آنذاك - ومعظمهم من الدارسين في الكلية العسكرية ، قد وصل إلى (١٤٠٠) طالب ، وقد تأثر هؤلاء خلال وجودهم هناك بالأفكار الغربية (الليبرالية والاشتراكية على حد سواء). الأمر الذي أدى إلى نشوء تيار وطني (عراقي) متشرب بالأفكار الغربية التي حملت في طياتها بذور الثورة والإصلاح التي من المحتمل جداً أنها وجدت أرضاً خصبة بينهم. إذ أتى معظم هؤلاء الطلبة من الفئات الدنيا من الطبقة المتوسطة ؛ وكانوا يؤلفون ، في الوقت نفسه ، ما نسبته ٩٣% من مجموع الطلبة العراقيين الذين درسوا في المدارس العالية بإسطنبول. مما كان يعني أنهم كانوا يمتلكون تقريباً التجانس الثقافي والاجتماعي، ونسبياً الزخم العددي ذي الأهمية المعنوية الدافعة لهم. وإن كل ذلك قد يُفسر لماذا أن أولى الدعوات لتطبيق الأفكار الليبرالية والاشتراكية كان أصحابها ينتمون إلى فئة - الضباط العراقيين^(١) .. الذين كانوا - يومذاك - عماد الطبقة البورجوازية العراقية الصغيرة ، وقوتها (السياسية) المؤثرة.

وإذا ما توقفنا عند إطلالة القرن العشرين ، نلاحظ بدء قدوم الشركات الأجنبية إلى العراق ؛ وذلك يرجع إلى أسباب عدة ، منها بداية إندماج الاقتصاد العراقي في دائرة الاقتصاد العالمي ، وخروجه من دائرة اقتصاد الكفاف والمقايضة الى الاقتصاد النقدي الحديث ؛ وبدء ظهور المطامح الأوربية في البلاد ، وبروز شريحة الكومبرادور Comprador وهي الشريحة التجارية التي تتمتع بامتيازات الحصول على توكيلات من الشركات الأجنبية النافذة ، لتحقيق غرضين ، أولهما : خدمة مصالح تلك الشركات، وثانيهما : تحقيق المنافع الخاصة لهؤلاء الوكلاء (التجار) المحليين.

وعليه نلاحظ قيام شركة لنج (البريطانية) للملاحة النهرية ، بتشديد مقر لها في بغداد عام ١٩٠٦ عند شارع المستنصر (شارع النهر)^(٢) ، الحاذي لنهر دجلة من

(١) محمد جبار ابراهيم ، (الصراع بين التجديد والتقليد أبان الأيام الأخيرة للعثمانيين) ، المدى ، السنة ١٢ ، العدد ٣٢٢٩ في ١/١٢/٢٠١٤ ، ملحق: ذاكرة عراقية ، ص ٥.
(٢) المدى ، السنة ١٢ ، العدد ٣٢١٧ في ١٧/١١/٢٠١٤ ، ملحق: ذاكرة عراقية ، ص ١٤.

الغرب وشارع الرشيد من الشرق. وهي الشركة التي كان لها دور في إرساء النفوذ البريطاني في العراق ، من جهة ، وتيسير النقل النهري بين بغداد والبصرة من جهة أخرى. مما سهل كثيراً من عمليات نقل الأشخاص والبضائع بين المدينتين اللتين تمثلان أهم المراكز المدنية في وسط (المركز) وجنوب (الميناء) العراق. مما دفع بإتجاه تعزيز النشاط الزراعي والصناعي ، وتفعيل دور الاقتصاد النقدي وبناء سوق عراقية حديثة.

ويبدو أنه كان لهذه الشركة ، واسمها الرسمي (إخوان لنج) نفوذ واسع في حينها بدلالة سعيها للحصول على امتيازات الإدارة الحميدية عام ١٩١١ ، مما أدى إلى اندلاع تظاهرات واحتجاجات نظمتها جماعة (عبدالقادر الخضيرى ومحمود الشابندر) ومشاركة جعفر أبو التمن - وهم من الساسة والوجهاء المعروفين في حينها- لمعارضة بيع امتيازات الإدارة الحميدية لتلك الشركة البريطانية النافذة.^(١)

ومن المخطات النابضة بالحياة والنشاط ، نشير إلى ما قام به الوجيه محمود الشابندر ، وهو إحدى الشخصيات البغدادية المعروفة - في حينه - والتي شاركت بتوظيف إمكانياتها التجارية لصالح بغداد ، وليقدم نفسه نموذجاً للطبقة البورجوازية (الصناعية) الرائدة .. إذ أنشأ في عام ١٩٠٧ مطبعة سميت بمطبعة الشابندر تيمناً بشهرته ومكانته الاجتماعية في الوسط البغدادي - آنذاك -.

وكان موقع مطبعة الشابندر في منتصف الجهة اليمنى لشارع المأمون (الرصافي) حالياً ، بإتجاه جسر الشهداء.

وحين احتل الجيش البريطاني بغداد بقيادة الجنرال مود عام ١٩١٧ اتخذ من مطبعة الشابندر نواة لمطبعة جيش الاحتلال.* وكأن الانكليز قد أجروا مسحاً كاملاً

(١) علي حسن الفواز، (جعفر أبو التمن : الاصلاح السياسي والاقتصادي وعتبات التنوير) ، المدى ، السنة ١٢ ، العدد ٣٢٤٠ في ٢٠١٤/١٢/١٨ ، ص ٦.

* لم يكتب البريطانيون ، الذين جاءوا تحت شعار براق ، هو محررين لا محتلين - وفقاً لخطاب الجنرال مود / قائد الحملة البريطانية على بغداد / في اهالي العاصمة ، عندما دخلها محتلاً سنة ١٩١٧ ؛ بغلق مدرسة الصنائع (الرائدة) ، بل اعتمدوا على مطبعة من إسهام البورجوازية العراقية ، ولم يجلبوا معهم حتى مطبعة معهم لتحديث البنية الصناعية العراقية الموجودة.

لمطابع بغداد فلم يجدوا افضل من مطبعة الشايندر التي تم استئجارها منه أول الأمر ثم اشتروها وعينوا لها مديراً إنكليزياً برتبة كابتن يعاونه اثنان من العسكر الإنكليزي. وقد وسعوا مساحتها بإضافة الدار المقابلة لها والعائدة للشايندر ، ثم أضافوا إليها المساحات المجاورة.

وكانت أبنية المطبعة تتكون من ٤٦ غرفة ودار سكن المدير وجميع لوازم السكن. وما يتعلق بالعمل كانت مطبعة الشايندر تتكون من ماكتين كبيرتين للطبع ومطبعة صغيرة (صناعة بلجيكية) مع عدد من قاصات الحروف للترتيب اليدوي باللغات العربية والفارسية والتركية والإنجليزية وعددًا آخر من مكائن التصحيف.^(١)

ثم قام الإنكليز بنقل ماكنة طبع كبيرة من مطبعة الولاية التي أسسها مدحت باشا عام ١٨٦٩ وأضافوا إليها أيضاً ماكنتي (الأنبوتايب) لسبك السطور مزودة بمخازن للحروف باللغة الإنكليزية فقط مع ماكنتي طبع حجم جريدة وأربع مكائن طبع متوسطة وصغيرة وكانت كلها تدار بمكائن «الأنجن» وتشتغل بالنفط. لقد أطلق الإنكليز على المطبعة - بعد أن تملكوها - اسم (دائرة المشرف على الطباعة والقرطاسية. العراق). وطبعت في هذه المطبعة جميع الأوامر والبيانات والقوانين التي أصدرها قائد الحملة البريطانية في بلاد ما بين النهرين ، ومن هذه الأوامر « قانون العقوبات البغدادي » الذي صدر على شكل بيان سنة ١٩١٨.^(٢)

ويبدو أن تأثير مطبعة الشايندر ظل راسخاً في تاريخ الثقافة العراقية وشريحة الانتلجنسيا المبدعة بدلالة انتشار المطابع الحديثة في هذا المكان ، الذي أصبح لصيقاً بشارع المتنبي - المتفرع عن شارع الرشيد - قريباً من شمال الرصافي ، وهو منتدى العلم والثقافة والأدب في بغداد. وهو الشارع الذي يعج اليوم بالحركة الإبداعية ، ليس لأنه شارع الكتب والمطابع في بغداد ، وإنما لأنه أصبح ملتقى المبدعين والمثقفين، ليس في

(١) فاخر الداغري ، (مطبعة الشايندر ... ريادة ووهج) ، صحيفة الصباح ، بغداد ، العدد ٣٢٠٠ ، في ٢٠١٤/٩/٩ ، ص ١٠.

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٠.

مقهى الشابندر حسب، وإنما في الملتقيات الأخرى (المدى ، المنتدى الثقافي البغدادي،
مقهى الزهاوي، مقهى حسن عجمي) التي يحتضنها الشارع وملحقاته في الوقت
الحاضر.

وسيراً على طريق الانفتاح وتوسيع منافذ الارتقاء أمام الطبقة الوسطى النامية
- آنذاك - قدم الشيخ شكر الله والسيد علي مهدي البغدادي - وهما من وجهاء
بغداد - طلباً الى الوالي العثماني وكالة المشير عبدالله باشا قائد الجيش السادس في
بغداد، وتمت الموافقة على فتح مدرسة باسم (مكتب الترقّي الجعفري العثماني) في ١٧
ذي القعدة سنة ١٣٢٦هـ الموافق ١٢/ كانون الأول ١٩٠٨ ، وتم تأجير الدار
المجاورة لمسجد الحاج داود أبو التمن والتي كان يسكنها الطبيب (أرستو) المشهور في
حينه. وقام بالتدريس فيها كل من السادة: علي البزركان ونافع السويدي وحيدر بك
الحيدري وحسين فوزي أفندي ورؤوف أفندي بن عبدالله العطار ومحمد أفندي الشيخلي
وحسن البرزنجي. وبعد الحرب العالمية الأولى تغير اسمها إلى (المدرسة الجعفرية) وقد
اكتسبت شهرة علمية ومعرفية واسعة وظل تقييمها على أنها صرح علمي قياساً بالمستوى
المنخفض للتعليم آنذاك حيث أسهمت في تطوير المعرفة في علوم الرياضيات وضبط
الحسابات التجارية. (١) كما ان المدرسة - وهذا اهم ما فيها - أنها كانت مصدراً مهماً
من مصادر تعليم اللغات الأجنبية (٢)، التي ازدادت الحاجة إليها - في حينه - بحكم
الاحتكاك بالأجانب وبحكم المراسلات التجارية والمصرفية.

ومن الجدير بالذكر ، أن مصادر أخرى ذكرت أن سلمان أبو التمن - وهو
من وجهاء وتجار بغداد ، ووالد جعفر أبو التمن التاجر والسياسي المعروف - هو من
أسس المدرسة الجعفرية. (٣) ولا تختلف هذه المصادر في تثبيت اسم مؤسس المدرسة
الجعفرية ، وإنما في توثيق سنة التأسيس ، إذ تذكر أنها سنة ١٩٢١. إذ تشير هذه

(١) عزيز جاسم الحجة ، (بعض الأوائل البغدادية) ... ص ٩.

(٢) علي حسن الفواز ، (جعفر أبو التمن .. الاصلاح السياسي والاقتصادي وعبثات التنوير) .. ص ٦.

(٣) المصدر نفسه ، ص ٦.

المصادر إلى أنه وبمبادرة (من التاجر البغدادي المعروف الحاج سلمان أبو التمن ، تأسست المدرسة الجعفرية في بغداد ، واتخذت المدرسة من الدار التي كان يسكنها (ارستو) الطبيب المشهور مقراً لها ، وقام بعض التجار بالتبرع للمدرسة التي كانت غايتها الأساسية تدريس اللغات الأجنبية الأوربية ، لتكوين جيل شاب عراقي منفتح على العالم). ويضيف هذا المصدر، أن يوم الافتتاح شهد إقامة (حفل كبير يوم ١٩٢١/٧/٨ حضره الأمير فيصل [قبل أن يتوج ملكاً على العراق]، مع رهط من كبار الوجهاء والأعيان والأدباء والعلماء والشعراء ، منهم الشاعر المعروف جميل صدقي الزهاوي، الذي لم يكن له ما يهديه من مال، فأنشد:

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم تسعد الحال^(١)

وبغض النظر عن سنة تأسيس المدرسة الجعفرية، إن كانت سنة ١٩٠٨ أو سنة ١٩٢١ ، أو عن السادة الأفاضل الذين قاموا بتأسيسها (البغدادي أو أبو التمن) أو إن كانت المدرسة (الأولى) في عام ١٩٠٨ تختلف عن (الثانية) في عام ١٩٢١ ، أو أن كلاهما واحد ؛ فإن المتفق عليه ، أن هذه المدرسة كانت محطة مفصلية ، ليس في تاريخ التعليم العراقي حسب وإنما في تاريخ العراق ، لأنها اول مدرسة عراقية حديثة تعنى باللغات الأوربية والرياضيات وإدارة الأعمال ، وهذا ما كانت تحتاجه ، ليس السوق فقط ، وإنما الحياة بمجملها في العراق آنذاك .. إنها الحاجة إلى جيل علمي حديث يُرسي أسس قيام طبقة بورجوازية رائدة من الانتلجنسيا الحديثة تحمل أعباء التغيير والتجديد والتحديث في كل مجالات الحياة .. وتكون مدخلاً للحراك نحو كل ما هو أفضل وأنفع للمجتمع ، ذلك (أن التعليم عنصر أساسي في إحداث الحراك ، وكذلك في تراكم الثروة. مع ذلك هناك عامل آخر مهم هو اتخاذ القرارات الاقتصادية)^(٢) ؛

(١) أحمد الخالدي ، (قصة تأسيس المدرسة الجعفرية) ، المدى ، السنة العاشرة ، العدد ٢٧٥٢ في ٢٠١٣/٣/١٨ ، ملحق : ذاكرة عراقية ، ص ٢.

(٢) كاس سانستين ، (نجاح الآسيويين الكبير في أمريكا) ، الشرق الأوسط ، لندن ، السنة ٣٧ ، العدد ١٣٢٤٥ في ٢٠١٥/٣/٤ ، ص ١٠.

وخير من يتخذ القرارات السليمة والهادفة هو الإنسان المستنير، المسلح بالعلم والمعرفة. ومن هنا تأتي أهمية هذه المدرسة كمحطة تنوير على درب خلق طبقة بوجوازية مستنيرة وفاعلة في ذلك التاريخ العراقي المبكر.

5-أعوام المشروطة ، والتحولت السياسية والاجتماعية والاقتصادية

وإذا ما عدنا - وفقاً للمنهج المتدرج المعتمد في هذه الدراسة - إلى العام الذي توقفنا عنده وهو العام ١٩٠٨ ، قبل أن يقودنا تأسيس المدرسة الجعفرية (الرائدة) إلى عامين مختلفين ، وهما العام ١٩٠٨ والعام ١٩٢١ ، فإننا نقول ، أن ذلك العام (١٩٠٨) هو عام مفصلي في تاريخ البوجوازية العراقية ، لأنه العام الذي شهد إعلان السلطان العثماني عبد الحميد الثاني ، الدستور، بضغط من حركة الاتحاد والترقي (الاتحاديين) ، وهو الاعلان الذي أنعش الحركة السياسية والصحافية في العراق ، إذ لم يكن في العراق كله آنذاك سوى جريدة الزوراء في بغداد وجريدتي البصرة والموصل في كل من تلك المدينتين. ولكن ما أن تم إعلان الدستور العثماني ، حتى بلغت الصحف في بغداد وحدها خلال سنتين خمساً وعشرين جريدة ومجلة ، ثم تضاعف هذا العدد ، حتى وصل إلى تسع وستين صحيفة ، وعشرين مجلة بين أسبوعية وشهرية ، وإذا ما وضعنا في الحسبان عدد سكان العراق آنذاك ، ونسبة المتعلمين إلى الأميين ، تبين لنا كثرة عدد تلك الصحف والمجلات.^(١)

وكان لهذه (الهبة) الصحفية أثرها الكبير في ارتفاع الوعي السياسي عند الجمهور، الأمر الذي انعكس إيجاباً على حركة الطبقة الوسطى التي لا يمكن أن تنمو وتزدهر إلا في وسط مدني متعلم ومثقف.

وشهد هذا العام المفصلي ١٩٠٨ وهو عام الدستور - كما قلنا- أو سمي بـ (المشروطة) أيضاً ، تأسيس كلية الحقوق في زمن ناظم باشا- المفتش العام للخطة

(١) ينظر في ذلك: أبو الهيل ، أسس قيام الطبقة الوسطى ... ص١٧. وقارن مع : سعيد الغانمي ، الأفندية ونشأة النقد الحديث في العراق ، مجلة عيون ، بيروت ، منشورات الجمل، العدد ٤ ، سنة ١٩٩٧ ، ص٢٣-٢٤.

العراقية ووكيل والي بغداد في حينه- وكان اسمها أولاً (مكتب الحقوق العثماني) وأول مدير لها هو موسى كاظم الباجه جي.

وما يشير الانتباه هنا ، أن هذه الكلية الرائدة ، التي تعد أول كلية في العراق الحديث ، شهدت قبول أول طالبة جامعية عراقية ، هي (صبيحة الشيخ أحمد داود) سنة ١٩٣٦ ، وتخرجت منها كأول طالبة تحمل صفة الخريجة الأولى.^(١)

وهذه أول نقلة على طريق دخول المرأة عالم الانتلجنسيا العراقية ، وهذا الأمر يحسب بالطبع لصالح تعزيز وضع الشرائح البورجوازية الحديثة*.

وبعدها ازداد العدد تدريجياً للطالبات اللواتي قبلن في هذه الكلية التي تغير اسمها إلى كلية الحقوق بعد الاحتلال البريطاني لبغداد عام ١٩١٧. وكانت دراسة الطالبة المذكورة حدثاً ثقافياً واجتماعياً كبيرين كان الناس يتناقلونه بين مؤيد ومستكثر على المرأة أن تواصل دراستها الجامعية ، ومستقبلها أن تعمل ك محامية^(٢)، جنباً إلى جنب مع الرجل ، وهو الأمر الذي شكل دعماً قوياً لصالح التحديث والتجديد ورافد حيوي فاعل للطبقة البورجوازية البازغة آنذاك.

وعلى طريق دعم الخطوات الوئيدة للبورجوازية الوليدة آنذاك (١٩٠٩) ، دعت (جمعية البصرة الاصلاحية) إلى فسح المجال أمام الحركة الاقتصادية وحرية التعليم ، وإن أدى ذلك إلى تباين اجتماعي ، وهذا ما لم يكن يرضي أنصار المساواة ودعاة (الاشتراكية). وجمعية البصرة الإصلاحية ، هي الجمعية التي كان (سليمان فيضي/

(١) عزيز الحجية ، ص ٩.

*وطالما أن الحديث هنا ، هو عن الرائدات المتعلقات (البرجوازيات) من النساء ، فإنه يحسن بناء ، أن نشير إلى أن أول طالبتين قبلتا في كلية الصيدلة ، هما جوزفين برجوني ورحيمة يوسف ، وقد تخرجتا عام ١٩٤٠ ، واعتبرت (برجوني) أول صيدلانية تفتح صيدلية تمارس فيها العمل الحر بنفسها. وتعد (جوزفين غزالة) أول مهندسة عراقية اذ تخرجت عام ١٩٥٠. أما (أمينة علي صائب الرحال) فهي أول سيدة تحصل على إجازة قيادة المركبات عام ١٩٣٦ حيث قادت سيارتها في شوارع بغداد، وكان الناس في حينها بين مغتبط ومبارك ، وبين فاعراً فاه استغراباً واستنكاراً (على حرمة تقود سيارة). عزيز الحجية ، عن كتاب بغداديات ، الجزء السابع، مصدر سابق ، ص ٩.

(٢) عزيز الحجية ، المصدر نفسه ، ص ٩.

الشخصية العراقية المعروفة) معتمدها. وكانت أغلب أفكارها تتركز في اعتماد اللامركزية الإدارية (في ظل الدولة العثمانية)، والدفاع عن التراتب الطبقي بما يدعم قيام وازدهار الطبقة البورجوازية، إذ كانت الجمعية تدعو إلى حماية التمايز الاجتماعي! والعمل المشترك لأجل ذلك، لتحويل اللامركزية الإدارية (في أواخر عهد الدولة العثمانية) إلى سلطة هرمية محلية: السوالي على رأسها والمجالس الإدارية قاعدتها، أي أن التمايز الاجتماعي / السياسي كان هو الأساس الحقيقي لوجودها. فبعد أن حدد سليمان فيضي ماهية حرية ممارسة الفرد لحقوقه (حسب رأيه)، وهي الحرية الشخصية والحرية المدنية والحرية السياسية التي نشرها في أحد أعداد جريدته (الإيقاظ) الصادر في شهر آب/أغسطس سنة ١٩٠٩، حدد مفهومه للمساواة، بقوله «وهي أن يكون الغني والفقير، والكبير والصغير، والمسلم وغير المسلم في الحقوق الشخصية سواء لا فرق بينهما، وفي سائر الأحوال بمقتضى التطبيق لأصول التربية والآداب والعرف العام، ويلزم أن يعرف كل أحد مقامه»^(١).

وواضح في الحملة الأخيرة دور الحرية التكويني الذي يعتمد التراتبية الاجتماعية، لاسيما وأنه جعل أصول التربية والآداب والعرف العام المعايير المحددة لطبيعة وطريقة تفعيل مبدأ المساواة في المجتمع، مُسقطاً دور القانون من حساباته. لكن هذا لم يمنع من وجود أكثر من نقطة طموحة في برنامجه، أهمها دعوته «لأن يكون كل فرد حراً بتشكيل كل نوع من أنواع الشركات المتعلقة بالتجارة والصناعة والزراعة، وليس لأحد حق المعارضة، ويكون مفوضاً على فتح مكتب باسم التدريس [مدرسة] خصوصياً كان أو عمومياً بشرط مطابقتها للقانون»^(٢).

أي أنه دعا إلى تطبيق الحرية الاقتصادية وحرية التعليم، والتي عكست رغبات البورجوازية العراقية من الكومبرادور والملاك وفتة الانتلجنسيا العراقية معاً. ولأن ظروفه حافظت على اعتدالها قدر تعلق الأمر بمصالح المراتب الاجتماعية العليا،

(١) محمد جبار إبراهيم، (الصراع بين التجديد والقديم في العراق أبان الأيام الأخيرة للعثمانيين)، ص ٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤.

أصبحت أهمها جزءاً أساسياً من برنامج « جمعية البصرة الإصلاحية » الذي كان عبارة عن وثيقة مساومة وحل وسط لتحالف عناصره المتباينة. (١)

وخلال العام ١٩١١ حدث تطور دراماتيكي في واقع البورجوازية العراقية ، لاسيما التجارية منها، وذلك من خلال (غرفة تجارة بغداد) التي انتظم تأسيسها عملياً في ذلك العام. وكان للتاجر المعروف - والسياسي فيما بعد - جعفر أبو التمن دور متميز في تأسيس (الغرفة) ، إضافة إلى أدواره في دعم كثير من النشاطات الاقتصادية، فضلاً عن دفاعه عن حرية التجارة والعمل على إحداث نهضة اقتصادية من خلال دعم إنشاء المشاريع الوطنية مثل ملحج القطن ، والزيت النباتية. (٢)

ومن الجدير بالذكر أن أغلبية المناصب في غرفة تجارة بغداد ذهبت في حينها / عند التأسيس لليهود الذين كانوا يهيمنون على الشؤون التجارية والصرفية في بغداد. (٣)

ويذكر أحد المصادر أن تأسيس (الغرفة) لم يكتمل إلا في عام ١٩٢٦ ، وأنه كان لرجل الأعمال العراقي المعروف آنذاك نوري فتاح باشا دور ملموس في تأسيسها ، إذ يشير إلى أنه بعد قيام الحكم الوطني في العراق سنة ١٩٢١ ، (أصبحت الضرورة ملحة لتأسيس غرف التجارة ، وقد صدرت العديد من الدعوات في صحف البلاد المحلية تطالب الحكومة بتأسيس الغرف التجارية ، لذلك سنت الحكومة العراقية ، بعد حصول موافقة مجلس النواب والأعيان ، قانون غرف التجارة ذي الرقم (٤٠) لسنة ١٩٢٦ ، وبموجب هذا القانون جرت في ٢٨ أيلول ١٩٢٦ انتخابات اللجنة الإدارية لغرفة تجارة بغداد عن طريق الاقتراع السري ، ونتيجة الانتخابات فاز (١٥) عضواً كان

(١) المصدر نفسه ، ص ٤ .

(٢) ينظر في ذلك: فريدة جاسم المنديلاوي ، النظرية العالمية في مجتمع متغير ... ص ١٥ ؛ علي حسن الفواز ، (جعفر أبو التمن .. الإصلاح السياسي والاقتصادي ...) ، ص ٦ ؛ أبو الهيل ، أسس قيام الطبقة الوسطى ... ص ٣٧ .

(٣) فريدة المنديلاوي ، ص ١١ - ١٥ .

من بينهم نوري فتاح ، والذي حصل على ٢٩ صوتاً ، ليكون بذلك من الأعضاء المؤسسين لغرفة تجارة بغداد. (١)

سعى نوري فتاح باشا - الصناعي العراقي الرائد- من خلال عضويته في غرفة تجارة بغداد إلى العمل مع باقي أعضاء الغرفة لتحقيق الغايات التي حققت من أجلها الغرفة والمتمثلة في تحقيق النهوض الاقتصادي في البلاد ، وحماية مصالح التجارة والتجار . فكان يشترك في اللجان التي تشكلها الغرفة ، ويعبر عن آرائه في المواضيع الاقتصادية التي تناقش ، ويشترك في المؤتمرات الاقتصادية التي تعقد . ف فيما يتعلق باللجان التي كانت له مشاركة في عدد منها ؛ نذكر على سبيل المثال أنه كان أحد أعضاء لجنة إعداد نظام الغرفة الداخلي عام ١٩٢٨ ، وأحد أعضاء لجنة دراسة لائحة قانون الكمارك عام ١٩٢٨. (٢)*

وخلال عام ١٩١٢ خططت الانتلجنسيا البغدادية الناشئة خطوة ريادية فاعلة، من خلال تأسيس (النادي الوطني العلمي) الذي دعا عام ١٩١٣ ، إلى اللامركزية ضمن إطار الدولة العثمانية .. ورفعه شعار اللامركزية فإنه تمتع ببريق منحه التأييد المادي والمعنوي من قبل عدد من الشخصيات العراقية المتنفذة ، مثل يوسف السويدي وعيسى الجميل وعبدالرحمن الكيلاني وطالب النقيب. (٣)

وعرف النادي لاسيما أول ظهوره - بتبنيه لبرنامج إصلاحى مرحلي، أكد فيه على الدعوة إلى تأهيل أفراد المجتمع العراقي من خلال الاهتمام بالتعليم ونشر العلم والثقافة بينهم. وكان من بين أعضاء النادي إبراهيم حلمي عمر، الذي كان يدعو بحكم

(١) صلاح عربي العبيدي ، (من تاريخ صناعتنا الوطنية في الجيل الماضي) ملحق صحيفة المدى ، السنة العاشرة ، العدد ٢٨٧٥ في ٢٦/٨/٢٠١٣ ، ص ١٤ .

(٢) العبيدي ، المصدر نفسه ، ص ١٤ .

* سوف تتم الإشارة إلى الدور المحوري والريادي الذي مارسه (نوري فتاح باشا) في تأسيس صناعة وطنية عراقية في موضع آخر من هذه الدراسة.

(٣) محمد جبار ابراهيم ، ص ٤-٥ .

تأثره بالأفكار الاشتراكية إلى انقلاب اجتماعي وديمقراطي للشعب.. بتوفير بنية صناعية ومنظومة كهربائية بشكل يسمح بإقامة نظام (اقتصادي متطور).^(١)
وكان النادي يرنو إلى الدفاع عن الأملاك العامة ، عندما قرر عام ١٩١٣ ، مقاومة عزم الحكومة على بيع الأراضي الأميرية بالمزايدات ، عبر دعوته لتسيير مظاهرات في بغداد.^(٢)

وشهد عام ١٩١٦ حدثاً فريداً ومميزاً ، وهو افتتاح أول شارع (نظامي) في بغداد (الرصافة) ، ألا وهو شارع الرشيد* ، وربط هذا الشارع - لأول مرة وبشكل مباشر وميسر- بين شمالي بغداد (الباب المعظم وساحة الميدان) وجنوبيها (الباب الشرقي). وكان اسمه في البداية (خليل باشا جاده سي) ، أي : شارع خليل باشا آخر والي عثماني على بغداد. وبلغ طول الشارع ٣,١٢٠ كيلومتر، وعرضه ١٢,٥ متر.^(٣)

ويعد افتتاح هذا الشارع - في حينه- نقلة نوعية على طريق تيسير عمل وتنقل كبار التجار والصارفة والطباعيين والصحفيين والموظفين ، فضلاً عن عموم المواطنين .. ذلك لأن الشارع يقع في قلب بغداد / التجاري (أسواق الشورجة) ، فضلاً عن مركزها السياسي حيث مقرات الحكومة ودواوينها.

ومن الجدير بالذكر، أن شارع الرشيد عند تأسيسه كان معتماً في الليل ، إذ لم يتم توصيل الكهرباء إليه إلا في سنة ١٩١٧ ، أي بعد سنة من إنشائه ، وتم ذلك على يد العمال الهنود في أيام الاحتلال البريطاني.^(٤)

(١) المصدر نفسه ، ص ٤-٥ .

(٢) بتصريف عن المصدر نفسه ، ص ٤-٥ .

* يرى البعض أن أقدم شارع في بغداد هو شارع المستنصر (النهر) ، لكنه في الحقيقة كان (ولم يزل) عبارة عن زقاق طويل (أقل من كيلومتر) ، يمتد من سوق الخفافين وينتهي عند جسر الأحرار . ينظر: رفعت عبدالرزاق محمد ، (شارع الرشيد)، ص ١٤ .

(٣) فخري حميد القصاب، (شارع الرشيد ، أسماء وتاريخ) ، الصباح ، العدد ٣٢٠٠ في ٩/٩/٢٠١٤ ، ص ١٠ .

(٤) سعد الفتال (سندرسن باشا وتأسيس الكلية الطبية العراقية) ، المدى ، السنة العاشرة ، العدد ٢٧٥٢ في ١٨/٣/٢٠١٣ ،

ملحق ذاكرة عراقية ، ص ٨-٩ .

وبعد ذلك تتالت عملية افتتاح شوارع حديثة في بغداد ، منها شارع السعدون (١٩٣٢) ، شارع النضال (١٩٣٦) ، شارع الشيخ عمر (١٩٣٦) وهو شارع خاص بالصناعيين ، شارع الخلفاء (الجمهورية) (١٩٥٧) وهو شارع تجاري يخترق قلب بغداد التجاري (الشورجة).^(١)

وشهدت هذه المرحلة افتتاح مدرسة لها علاقة مباشرة بتبلور وظهور شرائح البرجوازية التجارية والمالية الحديثة؛ ونعني بها (مدرسة مأموري المالية) ، إذ تعد أول مدرسة منظمة للعلوم المالية ومسك الحسابات يقبل فيها الطلاب الذين تزيد أعمارهم على ١٩ سنة ومن شروطها خضوع المتقدم إليها إلى اختبار بالعربية والحساب والجغرافية والتاريخ ، ويمنح الطالب فيها (روبية واحدة) يومياً بصورة (إكرامية) ، وكانت مدة الدراسة فيها ستة أشهر، وكان الأستاذ داود السعدي أول مدير لها.^(٢)

نلخص مما تقدم ، إن إرهاصات ظهور وتبلور طبقة بورجوازية بما فيها من شرائح المتعلمين والمتقنين (الأنجلجنسيا) والحرفيين والمهنيين وأصحاب الورش والمصانع قد أخذت وقتاً طويلاً ، استغرق نصف قرن ونيف .. ومع ذلك كان هذا الظهور جنينياً ومحدوداً.

ولم تفصح المرحلة التي سبقت قيام الدولة العراقية الحديثة في عام ١٩٢١ ، منذ أيام داود باشا ، أو لنقل منذ أيام مدحت باشا ، سوى عن نزر يسير من طاقة الطبقة الوسطى ، - وهي الطبقة التي غيرت مجرى التاريخ في أوروبا وأمريكا واليابان. وعليه كانت المهمة عسيرة أمام المرحلة اللاحقة ، لتنجب رعيلاً رائداً من طبقة التجار والصناعيين والمتعلمين يأخذ على عاتقه قيادة التحديث والتجديد والتنمية في بلدٍ عانى سنين طويلة من التبعية والتخلف بكل أبعاده السياسية والاجتماعية والثقافية والحضارية.

خاتمة:

(١) بتصرف عن : رفعت عبدالرزاق محمد ، شارع الرشيد ... ص ١٥.

(٢) بتصرف عن : عزيز الحجية ، ص ٩.

أظهرت الدراسة بتواضع أن العراق شهد ولادة مبكرة لطبقة بورجوازية (صناعية / تجارية / متعلمة) ، منذ وقت مبكر من تاريخه الحديث .. وهو تاريخ يسبق قيام الدولة العراقية عام ١٩٢١ بعقود. وهي عقود قد تزيد على عشرة، إذ احتسبنا البداية من عهد داود باشا ١٨١٤ - ١٨٣١ ؛ أما إذا حددناها من أيام مدحت باشا ١٨٦٩ - ١٨٧٢ ، فإنها تقترب من نصف قرن. وهذا يعني أن نشوء هذه الطبقة بكل ما تحمل من صفة تجديدية وتنويرية ، باعتبارها صفوة المجتمع - في حينه - قد سبق قيام الدولة.

وهنا يثار سؤال حاولت الدراسة الإجابة عليه ، وهو: لماذا تواصلت السياسة [توالي الحكومة الواحد تلو الأخرى ١٩٢١ - ٢٠١٥] بكل إخفاقاتها وفشلها المزمّن ، في حين تراجع الاقتصاد أو انقطع، متمثلاً بهذه الطبقة التي كان بإمكانها تغيير وجه العراق - في حال استمرارها وتواصلها؟! -

أظهرت الدراسة أن هناك حركة بورجوازية رائدة في العراق سبقت حتى عصر داود باشا ، وهي حركة كان بإمكانها الاستمرار والنمو ، لاسيما وأنها استندت على شرائح نالت حظاً من العلم والمعرفة بقياسات ذلك العصر، وعلى وجهات وعائلات أثبتت استيعابها لحركة التحول الاقتصادي في العالم الذي أبدل اقتصاد الكفاف والمقايضة إلى اقتصاد حديث قائم على التبادل النقدي والتعامل عبر الحدود والفواصل الدولية.

وتطلبت الإجابة منا ، التحوال عبر المخطات التي مرت بها هذه الطبقة ، بما حملته (هذه المخطات) من قوة دفع أفضت إلى الأمام ، أو قوة قطع أودت إلى التراجع أو التوقف عن الحركة ! وعليه استغرقت عملية المرور ثلاث دراسات ، هذه أولها.

نتهي الى القول ، أن علينا اليوم أن نراجع تاريخنا الاجتماعي والاقتصادي ، وأن نقف عند أسباب تراجع مجتمعنا عن ارتقاء سُلّم التطور والحضارة ، في وقت كانت بدايتنا صحيحة وواعدة ، على يد رواد ، كان يحدهم الأمل في صنع غدٍ عراقي جميل ، لكن أضعاه الأحفاد في متهاتات، قد تكون السياسة على رأسها، أو قد يكون النفط

middle class in Iraq between early starting off and late floping

Abdulsalam Ibraheem Dawood Baghdadi

This study discussed basic subject in the modern and current economic , social ,political history of iraq . this subject is the emergence of middle class -Bourgeoisie - with it is industrial , commercial winges and its intellectual elites . our study depended on historical ,social comparative approach , to prove its hypothesis .this hypothesis says , iraqi Bourgeoisie has deep rootes in the history to re sort to beginning of nineteenth century .but this class growed and developed step by step and slowly , because local and foreign political variables .the study referd to the role of som pioneer political and social personalities in this field , and some socialite notables . also , this study refered to the role of some pathfinder establishments in this field.